الفصل الثالث

أصغر اللاعبين

ظهيرة يوم صيفي من عام 1992م

يبدو ملعب غراندولي أجرد تقريبًا، يكسوه كثير من التراب، وقليل من المساحات الخضراء على الخطوط الجانبية. القوائم في حالٍ يُرثى لها، شأنها شأن السياج، وشأن المبنى الذي يحوي غرف الغيار والحمّامات. لا يبدو الحيّ بأكمله بحالٍ أفضل؛ محطات مؤقتة لغسيل السيارات تنتشر عند تقاطعات جادة غواتيريز، بائعو إطارات مستعملة، لوحات تقول: «هنا نشتري الحديد»؛ أي محالّ خردة، حتى إنّ هناك قطعة من الكرتون تُعلِن عن توفير خدمة تنظيف الكلاب. نشاهد في الخلفية أبراج البناء المشهورة التي تبدو مهجورة مع أنّها مأهولة؛ بيوت صغيرة ذات سقوف منخفضة افتقدت التألّق الذي كانت عليه في الماضي، نباتات تنمو بين شقوق الأسفلت، نفايات تصطلي بحرارة الشمس، رجال وعجائز عاطلون، فتيان يركبون درّاجات هوائية صغيرة لا تناسبهم. يقول أكبر العجائز سنًّا: «لقد تغيّر الناس في هذه الأنحاء»، ثمّ يضيف: «أصبح من المخيف التجوّل هنا ليلًا؛ لقد انتقل الأشرار إلى هنا».

الساعة الثالثة عصرًا، لا يوجد أحد في المكان. ملعب كرة القدم خالٍ. لقد غادر الفتيان الذين يرتادون المدارس المجاورة، ثمّ يأتون لممارسة

obeikandl.com

الرياضة في مركز أبانديرادو ماريانو غراندولي للتربية البدنية (سُمِّي بهذا الاسم تيمُّنًا بأحد متطوعي حرب عام 1865م الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل الوطن). ولاعبو كرة القدم لا يأتون حتى الساعة الخامسة.

الشخص الوحيد الموجود في المكان هو معلِّم، يرتدي قميصًا أبيض، وبزّة رياضة زرقاء. يدلّنا على بيت يبعُد نحو 150 مترًا، هناك يقطن السيد أباريشيو؛ أول مدرِّب لليونيل ميسي.

يفتح أباريشيو الباب بيديه المبلَّلتين، فهو يُحضِّر الطعام لزوجته الكفيفة كلوديا. ومع ذلك، فهو يدعو ضيفه إلى الدخول. أربعة كراسيّ، كلب أبيض ضخم، رائحة نتنة تفوح في صالة ضيّقة يتوسطها تلفاز كبير. يبلغ سلفادور ريكاردو أباريشيو (ينادونه أبا) الثامنة والسبعين من العمر، لديه من الأبناء أربعة، ومن الأحفاد ثمانية، ومن أبناء الأحفاد أربعة؛ وجهه أعياه الزمن، وشاربه ذاوٍ، جسده ملتوٍ كسلك شائك، وصوته مرتجف كحال يديه.

عمل أباريشيو طوال حياته في سكّة الحديد. وقد ارتدى في شبابه القميص رقم 4 عندما لعب لنادي فورتن، ودرَّب الفتيان قبل أكثر من ثلاثين عامًا على ملعب غراندولي الذي يبلغ طوله 40 مترًا، وعرضه 5,7 أمتار.

تدرَّب على يديه المئات من الأطفال، بمَنْ فيهم رودريغو، وماتياس. كان الأخ الأكبر سريعًا قويًّا يلعب في مركز الوسط المتقدّم. أمّا الآخر فكان يلعب عند خط الدفاع. كانت الجدّة سيليا تصطحبهما إلى التدريب كلّ يوم ثلاثاء وخميس. وفي ظهيرة يوم صيفي، اصطحبت ليو معها.

«كنت في حاجة إلى لاعب لإكمال فريق مواليد عام 1986م. لقد انتظرْتُ اللاعب الأخير حاملًا قميصه بيديّ، في الوقت الذي أخذ فيه اللاعبون يقومون بعمليات الإحماء. لكنّ اللاعب لم يأتِ. وفي هذه الأثناء، كان هناك طفل صغير

opeikandi.com

يـركل الكرة علـى المدرّجات. لقـد كان الوقت يمرّ، وقلت لنفسـي: اللعنة... لا أعرف إن كان يجيد اللعب. ولكن... أخيرًا، توجّهت صوب الجدّة التي بدا عليها الاهتمـام اللافـت بكرة القدم، قائـلًا لها: دعيه يُجرِّب حظّـه. كانت تودّ رؤيته وهـو يلعب. وكثيـرًا ما طلبَتْ إليّ - من قبلُ- أن أمنحـه فرصةً للعب. وكم مرّة التقيتهـا، فأخذَتْ تُعدِّد لي المواهب التي يمتلكها هذا الفتى الصغير. كانت أمّه أو خالتـه، لا أذكـر تمامًا. لم تكن ترغب أن يشـارك الآخرين في اللعب، وكانت تقـول: إنّه صغير جدًّا، والآخرون ضِخام. كنْتُ أُطمئنها قائلًا: سأقف هنا. وفي حال هاجموه، فسأوقِف اللعب، وأسحبه من الملعب».

وهكـذا تجـري أحداث القصـة التي يرويهـا السيد أباريشيـو، لكنّ عائلة ميسـي- كوشيتينـي تصف الأحـداث بأسلوب مختلـف. «كانت سيليـا هي مَنْ أرغمـت أبـا على إشراكه عندما لم يأتِ ذلك اللاعـب. لم يُعجَب المدرِّب بتلك الفكرة؛ لأنّ (ليو) كان صغير الحجم. لكنّ الجدة أصرَّتْ قائلة: أشركه، وسترى مـدى مهارته. حسنًا، أجـاب أبا، لكنّي سأضعه قرب الخـط الجانبي، فإذا بدأ البكاء، فبإمكانك إخراجه من الملعب بنفسك».

لا يوجـد خلاف علـى ما جرى لاحقًا مـن أحداث. والآن، لنعـد إلى رواية المـدرِّب العجـوز: «حسنًا... أعطيتـه القميص، فارتداه. ثمّ جاءتـه الكرة أول مرّة، نظر إليها... من دون أن يُحرِّك ساكنًا».

نهضـ الـدون أبا، كما يُلقَّب هنا، عـن كرسيّه، ثمّ أخذ يُقلِّـد أصغر أفراد عائلة ميسي في نظرات الدهشة التي اعتلت مُحَيّاه، ثمّ جلس مرّة أُخرى قائلًا: «إنّـه أشول، لذلك لم يتمكّن من الوصول إلى الكـرة. عندما مرّت الكرة بقدمه اليسـرى، تشبَّث بها، ثمّ تخطّى أحد اللاعبين، فآخر، فآخر. صرخْتُ به قائلًا: اركلهـا، اركلها. لقد كان خائفًا من أن يؤذيـه أحدهم، لكنّه واصل شقّ طريقه.

لا أذكـر مـا إذا سجَّل هدفًا حينها أم لا. ولكن، لم يسبـق لي أن رأيت شيئًا مثل ذلـك. قلت لنفسي: هذا لاعب أصيل، لن أدعه يغادر أرض الملعب أبدًا. لم أقم بتبديله قطّ».

يختفـي السيد أباريشيو في غرفة أُخرى، ثمّ يعود حاملًا كيسًا بلاستيكيًّا، ويأخذ يُقلِّب في شريط ذكرياته. وأخيرًا، يجد الصورة التي يبحث عنها؛ ملعب أخضر، فريق يضم مجموعة من الفتيان الذين يرتدون قمصانًا حمرًا، شخص يبـدو أنّه أباريشيو أيـام الشباب، وأصغر الجميع سنًّا. لقـد كان يرتدي سروالًا أبيضـ يصل إلى الإبطيـن تقريبًا، وقميصًا كبيرًا جـدًّا، واعتلت قَسَمات وجهه ملامـح الجدّ والصرامـة، وكانت ساقاه منفرجتيـن. إنّه ليونيـل؛ يبدو كطائر صغير، كبرغوث، مثلما كان يسميه أخوه رودريغو.

«كان مـن مواليد عام 1987م، لكنّه لعب مع فريق مواليد عام 1986م. كان أصغـر اللاعبين سنًّا وحجمًـا، لكنّه برز من بين الجميع. لقـد عاقبوه من دون رحمـة. ومع ذلك، فقد كان لاعبًـا مميّزًا، يمتلك موهبة خياليـة. لقد وُلِد، وهو يعـرف كيف يلعب الكـرة. كان النـاس يحتشدون لرؤيته كلّمـا كنّا نلعب. لم يكن يعترض طريقـه أيّ شيء عندما يستحوذ على الكرة. لقد فعل أشياء لا تُصدَّق، ولـم يتمكّن أحد من إيقافه. كان يُسجِّل أربعة أهداف أو خمسة كلّ مباراة. وقد أحـرز يومًـا هدفًا في مرمى فريـق أمانيسير لا نشاهد مثلـه إلّا في الإعلانات. إنّنـي أتذكّره جيدًا؛ لقـد تخطّى الجميع، بمَنْ فيهم حارس المرمى. كيف كان أسلوبه في اللعب؟ لقد كان سيّد الملعب، لا يستطيع أحد مجاراته في اللعب، ما أبرز صفاته؟ كان فتى جادًّا، يقف دائمًا بهدوء إلى جانب جدّته. لم يكن يشتكي قـطّ. كان يبكي أحيانًا إذا تعرّض للأذى، لكنّه كان يقف ويواصل اللعب بعدها. لذا، فأنا أُجادل الجميع، وأُدافع عنه عندما يُقال: إنّه يحبّ اللعب منفردًا، أو إنّه لاعب عادي، أو إنّه جشع».

تنادي عليه زوجته من الغرفة المجاورة، فيختفي السيد أباريشيو هُنيهة، ثمّ يعود ليكمل حديث الذكريات.

يذكر شريط فيديو أضاعه، يحوي كثيرًا من المباريات المثيرة التي خاضها الفتى. «كنت أعرضه على الفتية؛ لكي يتعلّموا ما يمكن القيام به بالكرة». ثمّ أخذ يتذكّر أول مرة عاد فيها ليو من إسبانيا، وزيارته له: «لقد ساد جوّ من الدهشة والإثارة عندما شاهدني. وكنت قد ذهبت صباحًا، ثمّ عدت في الواحدة ليلًا. أمضينا الوقت نتحدث عن حال كرة القدم في إسبانيا». يذكر أيضًا حفل التكريم الذي أقامه الحيّ لليونيل. فقد أرادوا منحه درعًا في ملعب غراندولي، لكنّ ليو لم يتمكّن من الحضور. ثمّ اتصل لاحقًا ليقول لهم: «أشكركم، ربّما في وقت آخر».

لا ينتاب المدرِّب العجوز أيّ شعور بالمرارة في أثناء حديثه عن ليو؛ فكلامه يدلّ على عِظم الحُبّ الذي يَكنّه للفتى الصغير الذي درَّبه سنوات.

«أجهشت بالبكاء عندما شاهدت – بالتلفاز- هدفه الأول وهو يلعب مع فريق برشلونة. سألتني ابنتي جينوفيفا التي كانت في الغرفة المجاورة: ما الخطب يا أبتِ؟ قلت: لا شيء. إنّها الفرحة الغامرة التي تسلّلت إلى مكنونات نفسي، وجعلتني أشعر بنشوة الانتصار».

يُخرِج أباريشيو جوهرة أُخرى من كيسه البلاستيكي. إنّها صورة أُخرى للفتى الأشقر الصغير، وهو يرتدي قميصًا كبيرًا جدًّا، وقد بدت قدماه قصيرتين؛ ويحمل في يده كأسًا، لقد كان ذلك أول كأس يفوز به في حياته. كان حجم الكأس يُماثِل حجمه تقريبًا.

لم يبلغ ليو الخامسة من العمر بعدُ، لكنّه بدأ - مع ذلك- يشعر بحلاوة الأهداف، ولذّة الانتصارات على ملعب غراندولي. ثمّ يحالفه الحظ في العام

المقبل؛ بأن أصبح والده هو المدرِّب. فقد قبل خورخي عرضًا من مدير النادي لتدريب أعضاء فريق مواليد عام 1987م، الذين لعبوا أمام فريق ألفي، غريمهم القادم من طرف المدينة الآخر؛ إنّهم يفوزون دائمًا.

يقول خورخي ميسي، بفخر نابع من كونه أبًا أكثر منه مدرِّبًا: «إنّهم يُحرِزون كلّ شيء؛ البطولة، والدورات، والمباريات الودية».

نبتعد قليلًا عن كرة القدم للحديث عن المدرسة. فقد اعتاد ليو الذهاب إلى المدرسة رقم 66، وتُدعى مدرسة لاس هيراس الحكومية، وعنوانها 4800 شارع بوينوس آيرس. وكان يصطحبه إلى هناك والدته سيليا، أو خالته مارسيلا، أو الجارة سيلفيا إريانو، والدة سنتيا، صديقة ليو المقربة. لقد كانوا يذهبون مشيًا على الأقدام، شاقّين طريقهم عبر الحقول الواسعة، أو من حول أطراف ملاعب كرة القدم الموجودة في الثكنات العسكرية التابعة لكتيبة الاتصالات رقم 121. ولم تكن تستغرق هذه الرحلة أكثر من عشر دقائق.

واليوم، ولدى الاقتراب من البوابة الرئيسة، أمكننا مشاهدة أصغر طلبة الصفوف سنًّا، وهم منشغلون بالرسم. يرتدي اثنان منهم قميص ميسي، في حين يلعب بعض الفتية في سرادق مغطّى كبير، مرتدين أطقمًا بيضاء، وهم في قمّة التركيز. وعلى الرغم من وجود قوائم للمرمى، إلّا أنّه كان ينقصهم كرة للعب. وقد استعاضوا عنها بكومة من الأوراق البنية التي لُفَّت معًا بلاصق.

كان هؤلاء الفتية يتحرّكون على نحوٍ يُشعِر الناظر بالدوار، غير آبهين بالحصى المؤذي. وقد امتازوا بمهارة المراوغة، وسرعة الالتفاف، والمحاورة. وها نحن نشاهد ابن خالة ليو، برونو بيانكوتشي من بين اللاعبين؛ وقد تصبَّب العرق منه بغزارة، ومال وجهه إلى الحمرة من فرط المجهود والتعب، وتدلّى شعره الأسود على مُحَيّاه، وزيَّن شحمة أذنه بقرط أبيض ذي خطوط وردية. ثمّ

مـا لبث أن أخبرنا رفاقه بأنّه الأفضل. وقد سبـق للصحف أن كتبت الكثير من المقـالات في مدحه، والإشادة به، وتوقُّع أنّه سيكون خليفة ليو. أمّا مدرِّبوه فقد أجمعـوا علـى مهارته في اللعب، وعلـى موهبته التي تُضـارِع موهبة ابن خالته، فضلًا عن اتصافه بالخجل مثله. وكان يُصرِّح دائمًا بأنّه يحسد ابن خالته على روح المبادرة التـي يمتلكها، وعلى قدرته على تسجيل الأهداف. يلعب برونو في خط الهجوم أيضًا، وهو يودّ الانضمام إلى نادي برشلونة في يوم ما.

تحلّـق عدد مـن الأطفال حولنا، وكلّ يـودّ الإدلاء برأيه بشـأن الفتى الذي كان يرتـاد مدرستهم حتى وقت قريـب. بالنسبة إلى بابلو ذي الأحد عشر ربيعًا فالأمـر واضح تمامًا: «لديـه قدرة ليكون الأفضل في العالَم. إنّه أفضل حتى من مارادونـا. أكثر ما يعجبنـي فيه هو سرعته، إنّه خارق». أمّا أوغستين ذو التسعة أعـوام، فقد راوده شعـور بالقلق، وهو قلق يُؤرِّق حال الكثيـر من الأرجنتينيين: «بـدأ مارادونا حياته مع نادي أرجنتينيوس جونيـورز. أمّا ميسي فمع البارسا». بعيد جدًّا عن هنا من دون شكّ.

وفي المقابل، فإنّ كثيرًا من الفتيات اللاتي كُنَّ يَشعرْنَ بالخجل أكثر قرَّرْنَ الانضمـام إلى التجمّع. وقد كشفت آراؤهنّ عـن كثير من التضارب والتعارض؛ فبعضهنّ يعتقدْنَ أنّه وسيم، في حين تعتقد أُخريات أنّه قصير جدًّا.

حان الآن وقت الاستراحة، فأخذ التلاميذ الصغار يطاردون بعضهم بعضًا حول شجرة معمّرة. ويومًا ما، كان ليو يراوغ حول جذع هذه الشجرة الضخم في أثناء مطـاردة الكرات المصنوعة من الورق والبلاستيـك. إنّ أجمل الذكريات بالنسبة إليه – في تلك السنوات– كانت لعب كرة القدم بأيّ أداة أو شيء متوافر آنذاك. وقد صرّح مرارًا أنّه لم يكن متعلّقًا بالدراسة.

أكّـدت هذه المعلومة مونيكا دومينا؛ المعلِّمة التي درَّسته من الصف الأول

إلــى الثالث، بقولها: «لم يكن ليو مجتهدًا في الدراسة، لكنّ مستواه كان مقبولًا. وقــد واجــه صعوبة فــي القراءة بدايــة الأمر. لــذا، نصحت والدتــه بأخذه إلى اختصاصــي نطق. لقد تمكَّــن من التحسُّن شيئًا فشيئًا فــي بقية المواد، مع أنّه لــم يُحقِّق نتائج متقدّمــة. كان ليو طفلًا هادئًا لطيفًا خجــولًا، ولم يسبق لي أن شاهــدت طالبًــا خجولًا مثله طوال حياتي المهنية. لقــد كان مُقِلًّا في حديثه، لا يتكلّــم إلّا إذا خاطبه أحدهم، وكان يجلس بهدوء في مقعده آخر غرفة الصف. وفــي المقابل، كان أكبر الطلبة سنًّا يتنافسون معه على المشاركة في البطولات التــي تشارك فيها جميــع المدارس في مدينة روزاريو. لقــد كان ماهرًا بطبيعة الحــال، وتمكّــن من نيل كثير مــن الكؤوس والميداليات، لكنّني لــم أسمعه يومًا يتفاخر بطريقة لعبه أو أهدافه».

obeikandl.com